## الدرس (04): جمالية التلقي

### أولا: جذور وإرهاصات نظرية التلقي:

إن نظرية التلقي شأنها شأن غيرها من النظريات قائمة على أصول و جذور سابقة عليها، والجذور الحقيقية – في نظر روبرت هولب– تتمثل في تلك النظريات أو الاتجاهات التي ظهرت أو عادت إلى الظهور خلال الستينات والتي حددت المناخ الفكري الذي استطاعت فيه نظرية التلقي أن تزدهر به، و قد حصر "روبرت هولب" هذه الجذور في مؤثرات خمسة هي[1]:

أ/ **الشكلانية الروسية:** وقد أرجع "هولب" تأثير الشكلانية الروسية في نظرية التلقي إلى ثلاثة عوامل رئيسية، هي:

1- **الإدراك الجمالي:** اعتبار الشكل الفني مصدر الإدراك الجمالي ما يجعل دور القارئ مهما و بالغ الأهمية في تقرير الخاصية الفنية للعمل، و هذا تأكيد على نقل الاهتمام من علاقة المؤلف/ النص إلى علاقة النص/ القارئ.

2- **التغريب:** هو عنصر من عناصر الفن وظيفته تجاوز الإدراك العادي ولفت نظر القارئ إلى الشكل نفسه، وبالتالي إرغام القارئ على تجاهل التصنيفات الاجتماعية و جعله على وعي بالعمل.

3- **التطور الأدبي:** إن ما يطرأ على الفن من تغيرات إنما يأتي عن طريق رفض الطرز الفنية المعاصرة مما يؤدي إلى ثورة فنية دائمة تتعاقب فيها الأجيال و المدارس.

**ب/ بنيوية مدرسة براغ:** كانت أهم مبادئ مدرسة براغ كما وصفها موكاروفسكي، تتمثل في أن الفن طبيعة سيميولوجية و أن ثمة دورا فاعلا للفاعل الدلالي في الفكر الوظيفي، بالإضافة إلى الكشف عن خواص الوظيفة الجمالية وعلاقتها بالوظائف الأخرى. و ذهب "موكاروفسكي" إلى أن الفاعل الدلالي لا يتمثل أو يتجسم في هذا الشخص أو ذاك، فهو قد يكون المؤلف أو القارئ... إن هذا ما دعا "موكاروفسكي" إلى اعتبار العمل الفني علاقة مركبة أي حقيقة علامية تتوسط بين الفئات والمخاطب (الجمهور، المستمع، القارئ...).

[1]- ينظر : المرجع نفسه، ص 49-96.

**ج/ ظواهرية رومان إنجاردن:** يرى الدارسون أن الاتجاه الفلسفي الحديث الذي يركز على الدور المركزي للقارئ في تحديد المعنى هو الفينومينولوجيا (علم الظواهر)، ذلك أن "هوسرل" يذهب إلى أن الموضوع الحق للبحث الفلسفي هو محتويات وعينا و ليس موضوعات العالم، فالوعي وعي دائما بشيء، و هذا الذي يبدو لوعينا هو الواقع حقا... وبالتالي فإن المعنى في العمل الأدبي يعتمد على الموقف التاريخي لمن يقوم بتفسير هذا العمل.

د/ **هيرمينوطيقا جادامر:** ذهب "جادامر" إلى أن المعنى في العمل الأدبي يعتمد على الموقف التاريخي لمن يقوم بتفسير هذا العمل، و رأى بأن كل تفسير لأدب الماضي ينبع من حوار بين الماضي والحاضر.

هـ/ **سوسيولوجيا الأدب:** وظيفة الفن و دوره تلبية الحاجات النفسية لفئات اجتماعية، و هذه الحاجات النفسية تهدد المجتمع في حالة عدم تلبيتها. و كذلك للمجتمع دور في مسألة شهرة عمل فني أو كاتب بعينه في حقبة من الزمن، دون أن ننسى أهمية الذوق باعتباره مفتاحا و أساسا في تلقي الفن والأدب... ذلك لأن الكاتب إنما يكتب لقارئ أو جمهور من القراء، فهو عندما يصنع أثره يدخل في حوار مع قارئه.

**ثانيا: التفكيكية ونظرية التلقي:**

يكمن المبرر العلمي والمسوغ المنهجي في عقد مقارنة بين إستراتيجية التفكيك و نظرية التلقي من منطلقين اثنين:

الأول: إن تيارات "ما بعد الحداثة" أنجبت التفكيكية والتلقي اللذين حاولا تقويض سلطة النص بعد قتل المؤلف، والثاني: إن هناك جوانب كثيرة من التلاقي بين التفكيكية و التلقي، منها محاولتها تجاوز الطرح البنيوي الذي يعلي من شأن النص وقدرة أنساقه المغلقة في الإحالة على الدلالة، وفي عدم ارتباطه بمرسله الذي يخرج النص من يده ليتسلمه القارئ، يقول عبد العزيز حمودة: "إن كلا من التلقي و التفكيك يلتقيان في أهم مبادئهما، وهو إلغاء النص و قصدية المؤلف"[1]، ومن هذا المنطلق يتحول القارئ من متتبع لشفرات النص و السعي إلى تشفيرها –وفق ما ينتجه النص من معان مختزنة في أنساقه و بناه – إلى منتج حقيقي و فعلي للنص، يقول فضل ثامر في

[1]– عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1998، ع232، ص143.

هذا الصدد:" من هنا استطاعت الاتجاهات النقدية التي أعقبت البنيوية، و منها التفكيكية من تحويل القارئ من تابع لشفرات النص إلى منتج حقيقي للنص"[1]. غير أنه في مجال الإعلاء من سلطة القارئ و قدرته على إنتاج دلالة النص، يمكن الوقوف عند أهم جوانب الاختلاف بين التفكيكية والتلقي، منها:

– القراءة التي تقترحها نظرية التلقي هي قراءة تاريخية خاضعة لمبدأ تعاقب القراءات، أما القراءة التي تقترحها التفكيكية فهي أدبية عالمة و فعالة تنطلق من داخل النص ثم إلى خارجه.

– القارئ من منظور نظرية التلقي هو الأساس في عملية بناء معرفة حول النص و استخلاص المعاني، أي: إن النص خاضع لسطلة القارئ، بينما ترى التفكيكية أن القراءة هي التي تمارس فعلها على القارئ.

– تركز نظرية التلقي على القارئ و أهميته في إدراك المعنى، أما التفكيكية فتعلي من شأن القراءة وفاعليتها.

– تتفق التفكيكية ونظرية التلقي في مفهوم تعدد الدلالات، لكن نظرية التلقي تجزم بوجود معنى نهائي للنص و تسلم بنهائية التأويل و توقفه... في حين أن التفكيكية تؤكد، إلى جانب تعدد الدلالات، على لا نهائية التأويل و استحالة تثبيت معنى معين للنص.

– إذا كان القارئ من وجهة نظر التلقي مسلما بوجود معنى ثابتا خلف الأنساق اللغوية و أنه قادر على التوصل إلى ذلك المعنى أثناء تحاوره مع النص... فإن القارئ التفكيكي يتخذ موقف شك من النسق و قدرته على توزيع العلامات و تحقق أدائها.

– إن فكرة "أفق التوقع" توحي بأن القارئ – عند نظرية التلقي– يتوقع ما سيحمله النص من معان و دلالات باستحضار كل معارفه، أما التفكيكية، فأكدت أن القارئ يأتي إلى معركة النص خالي الذهن، و دوره الوحيد هو الانقياد لفعل القراءة وشروطها

[1]– فضل ثامر : اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص48.

**ثالثا: مبادئ جمالية التلقي النقدية:**

تنحدر نظرية التلقي من الفلسفة الظاهراتية الحديثة حيث أصبح المنظور الذاتي هو المنطلق في التحديد الموضوعي، و بالتالي فإننا لا ندرك المعنى إلا من خلال شعورنا القصدي تجاهه، و فهمنا الذاتي المحض هو أساس العلم المعرفي[1]، وفيما يلي عرض لأهم مبادئ جمالية التلقي النقدية:

– يلغي النقد المتوجه لقارئ النص كموضوع الاهتمام الوحيد و يدعو إلى دور رئيس لوعي القارئ، فتفاعل القارئ والنص و التضمين بين الذات والموضوع يحدث تركيز مضادا للشكلية على الملامح التجريبية للعقل النقدي الناشط وليس على الملامح الشكلية للنص. و من هنا فإن اشتراك القارئ على الكشف عن الأنساق البنيوية داخل النص، لم يعد المعنى هو ذلك التصور الكامن في جوهر النص، و إنما صار يتشكل من القراءات الكثيرات المختلفة لنص ما[2].

– لم يعد القارئ ذلك الشخص السلبي الذي يتلقى المعنى الكامن في جوهر النص، و إنما صار صاحب إسهام كبير في إنتاج المعنى، فالمعنى يأتي نتيجة التفاعل بين النص والقارئ حسبما تؤكده نظرية المعنى عند "أيزر". وبهذا يصبح المعنى أثرا يمكن ممارسته وليس موضوعا يمكن تحديده، و من هنا لا يكون العمل الأدبي نصا تماما أو ذاتية القارئ تماما، و لكنه يشملهما مجتمعين أو مندمجين، و بذلك تنبني نظرية المعنى أو نظرية (الأثر الجمالي) على ثلاثة عناصر أساسية (النص، القارئ، والتفاعل بينهما)، فالظاهرة الأدبية ليست هي "النص فقط، ولكنها القارئ أيضا، بالإضافة إلى مجموع ردود فعله الممكنة على النص، و على القول إنتاجية القول"[3] كما يرى ريفاتير.

– ينجز القارئ إضافة جمالية في تأصيل البعد الجمالي، فالنص لم يعد جماليا لذاته وفي ذاته، و إنما تجسيد جمالي لمجموع القراء الذين يتداولون عليه عبر التاريخ. وأثناء القراءة يغيب القارئ ذاته ويعيش لحظة النص و جماليته ويتفاعل مع وقع شعوره... والنصوص الأدبية تحتوي دائما على "فراغات" لا يملؤها إلا القارئ، لذلك فإن معنى

[1]– عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشعرية العربية المعاصرة، بحث في آليات تلقي الشعر الحداثي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007، ص83-84.

[2]– ينظر : مجلة "محاور" (مجلة النقد الأدبي والدراسات الثقافية)، ع:2، يونيو 2005، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ص234.

[3]– وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، دار الفكر، دمشق، ط1، جمادى الآخر 1428/ يوليو 2007، ص214.

النص لا يتشكل بذاته فقط، فلابد من عمل القارئ في المادة النصية لينتج معنى"[1]. إن القصيدة ليست غرضا في ذاتها و إنما هي غرض بما يضيفه إليها كل قارئ من تجربته الخاصة... وبناء على ذلك نستنتج أن الأساس الذي تنهض عليه نظريات القراءة هو "الإمكانات الفردية وتحررها وبعث الفاعلية فيها، من الواحدية إلى التعدد ومن اليقين المطلق إلى النسبي"[2].

– القراءة تجربة تفتح النص أمام التفسير الذي هو حوار جدلي بين القارئ والنص، بين الأسئلة التي يثيرها القارئ والأجوبة التي يقدمها النص، وبين الأجوبة التي لا يقدمها النص، والأسئلة التي يثيرها المؤلف الجديد للنص.

– إن العلاقة بين الدال والمدلول ليست وحيدة الجانب، فقارئ النص يمكن أن يتيح الدلالة التي لا تعتمد على النص وحده، لأن النص غير ثابت ولا محصور في مدلول واحد... فكل قارئ مؤلف جديد للنص...

– إن تراكم الفهم والقراءات لنص معين تجعل النوع في حالة تطور مستمر، ومن ثم فإنه من المهم الدرس التعاقبي في سياق تلقي الأعمال الأدبية، وهو مجد في تطور النوع الأدبي.

– النص الأدبي– بطبيعته المجازية– نص مفتوح يسمح بتعدد القراءات

– القراء لا يتساوون في نظرتهم إلى النص

– يستخدم أعلام نظرية التلقي مصطلح "أفق الانتظار أو التوقع" أو "الانتباه"، ومعناه استحالة فصل النص الذي نقرؤه عن تاريخ تلقيه والأفق الأدبي الذي ظهر فيه و انتمى إليه أول مرة. فالنص وسيط بين أفقنا والأفق الذي مثله أو يمثله، وعن طريق التداخل بين هذين الأفقين تنمو لدى مستقبل النص القدرة على توفر بعض الدلالات أو المعاني.

[1]– محمد شبل الكومي، المذاهب النقدية الحديثة (مدخل فلسفي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004، ص 330.

[2]– مجلة " محاور"، ع:2، ص13.

– تتحدث نظريات التلقي عن ضروب من القراء والقراءات، إذ يختلف التلقي بحسب القارئ وأفق توقعه، ومن أنواع القراء: القارئ المثالي، القارئ الضمني، القارئ المستهلك، القارئ الفعلي... ومن أنواع القراءات: القراءة الإسقاطية، القراءة التعليقية أو الشارحة، القراءة الشعرية (الإنشائية).

رابعا: **نظرية جمالية التلقي في النقد العربي المعاصر:**

حظيت جمالية التلقي بقدر كبير من الاهتمام لدى النقاد العرب المعاصرين حيث شهدت دراساتهم وبحوثهم حركة واسعة وانفجارا نقديا في المفاهيم والتنظير والتطبيق النقدي على النصوص الإبداعية. والجدير بالذكر أن نظرية القراءة، وما يحيط بها من مقاربة نقدية كالسيميائية و الأسلوبية والتأويلية... تمثل النقلة النوعية التي اتجهت إلى المتلقي وإلى مجموع القراء، وبحثت في القطب الجمالي الذي يتركه النص في هذه الذوات المختلفة في ثقافتها ومشاربها المعرفية والتذوقية وخبراتها الجمالية بالأدب وكتاباته... ومن هنا، كان النقد العربي المعاصر مواكبا للحركة النقدية الحداثية مستوعبا حقولها النظرية والتطبيقية، على أن الباحث في المكتبة الأدبية والنقدية العربية يقف على الكم الهائل من الدراسات التي أضحت تتعامل مع النصوص انطلاقا مع درجة حضور فعل القراء فيها ودور القارئ في نشرها.